الفصل الرابع

السحر بين الحقيقة والوهم

اختلف المنتسبون للإسلام في هذه المسألة اختلافا بينا، «فذهب أهل السنة والجماعة إلى أنَّ السحر ثابت، وله حقيقة، وعلى هذا أهل الحلِّ والعقد الذين ينعقد بهم الإجماع، ولا عبرة مع اتفاقهم بحثالة المعتزلة ومخالفتهم للحقِّ»[1].

وقال القرافي في فروقه: «السحر له حقيقة، وقد يموت المسحور أو يتغير طبعه وعاداته، وإن لم يباشره، وقال به الشافعي وابن حنبل، وقالت الحنفية إن وصل إلى بدنه كالدخان ونحوه جاز أن يؤثر وإلا فلا، وقالت القدرية لا حقيقة للسحر»[2].

وقال الشيرازي من الشافعية: «وللسحر حقيقة، وله تأثير في إيلام الجسم وإتلافه، وقال أبو جعفر الاستراباذي من أصحابنا: لا حقيقة له، ولا تأثير له، والمذهب الأول»[3].

وقال النووي: «قال أبو جعفر الاستراباذي من أصحابنا: لا حقيقة للسحر، وإنما هو تخييل، والصحيح أنَّ له حقيقة، وبه قطع الجمهور، وعليه

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/٤٦.
(٢) الفروق للقرافي: ٤/١٤٩.
(٣) المجموع للنووي: ١٩/٢٤٠.

عامّة العلماء، ويدلُّ عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة»[1].

وقال ابن حجر الهيثمي: «اختلف العلماء في أنَّ للسحر حقيقة أم لا؟ فقال بعض العلماء: إنه تخييل لا حقيقة له، وقال الأكثرون ـ وهو الأصح الذي دلت عليه السنة ـ له حقيقة»[2].

وقال ابن حزم: «ذهب قوم إلى أنَّ السحر قلب للأعيان وإحالة للطبائع، وأنهم يُرُون أعين الناس ما لا يرى، وذهب أهلُ الحق إلى أنَّه لا يقلب أحد عينا ولا يحيل طبيعة إلا الله عز وجل لأنبيائه»[3].

وواضح من هذه النقول أنَّ عامة أهل السنة والجماعة يذهبون إلى القول بأنَّ للسحر حقيقة، والذين خالفوا فئة قليلة، منهم أبو جعفر الاستراباذي من الشافعية، وأبو بكر الرازي من الحنفية، وابن حزم الظاهري، والفرقة التي خالفت في هذه هي المعتزلة[4].

يقول الفخر الرازي بعد أن ساق أنواع السحر الثمانية: «اتفق المعتزلة على إنكار هذه الأنواع إلا النوع المنسوب إلى التخييل، والمنسوب إلى التضريب والنميمة، فأمّا الأقسام الخمسة الأولى فقد أنكروها، ولعلهم كفروا من قال بها، وجوّز وجدوها»[5].

---

(١) روضة الطالبين للنووي: ٣٤٦/٩.
(٢) الزواجر: ١٠٠/٢.
(٣) الفصل لابن حزم: ٢/٢.
(٤) المجموع للنووي: ٢٤٠/١٩. أحكام القرآن للجصاص ٤٣/١. المحل لابن حزم: ٣٦/١. والفصل لابن حزم: ٢/٢.
(٥) قصة السحر: ص ٤٧.

أدلـة الجمـهـــور

١ ــ استدلَّ الجمهور على أنَّ السحر متحقق الوقوع بالأدلة من الكتاب والسنة، فلو لم يكن موجوداً حقيقة لم ترد النواهي عنه في الشرع، والوعيد على فاعله، والعقوبات الدينية والأخروية على متعاطيه والاستعاذة منه، وقد أخبر الله تعالى أنه كان موجوداً زمن فرعون، وسيأتي في ثنايا هذا البحث كثير من النصوص الدالة على ما ذكرنا.

٢ ــ قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾[1] فقد أخبر الحقُّ في هذا النص أنَّ الشياطين يعلِّمون الناس السحر، وأنَّ الناس يتعلمون منهم، وإذا لم يكن للسحر حقيقة فماذا يُعَلِّمون؟ وماذا يتعلم الناس؟..

ويكفي في الدلالة على المطلوب تصريح النصِّ القرآني بأنَّ الساحر يفرق بسحره بين المرء وزوجه، وأنه يضرُّ بسحره الناس.

٣ ــ قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾[2] والنفاثات في العقد الساحرات اللواتي يعقدن في سحرهن، وينفثن عليه، فلولا أنَّ للسحر حقيقة لما أمر الله بالاستعاذة منه.

٤ ــ واستدلَّ القرافي بالإجماع، وهو يرى أنَّ الخلاف فيه وقع بعد إجماع الصحابة على أنَّ له حقيقة، فلا يلتفت إلى هذا الخلاف.

---

(١) سورة البقرة: ١٠٢.

(٢) سورة الفلق: ٤.

يقول القرافي: «وكان السحر وخبره معلوماً للصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وكانوا مجمعين عليه قبل ظهور القدرية»[1].

وقال ابن القيم في ردّه على المعتزلة الذين قالوا: إنَّ السحر كلّه تخييل: «وهذا خلاف ما تواترت الآثار عن الصحابة والسلف، واتفق عليه الفقهاء، وأهل التفسير والحديث، وما يعرفه عامة الفقهاء»[2]

٥ ــ واستدلُّوا بسحره ﷺ، فقد ثبت في كتب السنة أنَّ لبيد بن أعصم اليهودي سحر الرسول ﷺ، حتى إنه يخيل إليه أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله، ثم شفاه الله وعافاه، وقد استدلَّ القرطبي بحديث سحره ﷺ، ثم قال: «وفيه أنَّ النبي ﷺ قال لما حَلَّ به السحر: «إنَّ الله شفاني»، والشفاء إنما يكون برفع العلة والمرض، فدلَّ على أن له حقاً وحقيقة، فهو مقطوع به بإخبار الله تعالى ورسوله على وجوده ووقوعه»[3].

٦ ــ واستدلَّ ابن القيم بقوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[4] وبقوله: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾[5].

ووجه الاستدلال بهذه النصوص أنه إذا «جاز على الساحر أن يسحر جميع أعين الناس مع كثرتهم، حتى يروا الشيء بخلاف ما هو به، مع أنَّ هذا تغيير في إحساسهم، فما الذي يحيل تأثيره في تغيير بعض أعراضهم وقواهم وطباعهم؟.

---

(١) الفروق للقرافي: ٤/١٥٠

(٢) التفسير القيم: ٥٧١.

(٣) تفسير القرطبي: ١/٤١. وسنتكلم على سحر الرسول ﷺ في فصل مستقل.

(٤) سورة طه: ٦٦.

(٥) سورة الأعراف: ١١٦.

وما الفرق بين التغيير الواقع في الرؤية والتغيير الواقع في صفة أخرى من صفات النفس والبدن؟.. فإذا غير إحساسه حتى صار يرى الساكن متحركاً، والمتصل منفصلاً، والميت حياً فما المحيل لأن يغير صفات نفسه، حتى يجعل المحبوب إليه بغيضا، والبغيض محبوبا وغير ذلك من التأثيرات»[1].

٦ ــ واستدلَّ العلماء على حقيقة السحر بوقوع السحر ووجوده، يقول ابن القيم: «والسحر الذي يؤثر مرضا وثقلاً وعقلاً وحباً وبغضاً ونزيفاً موجود، تعرفه عامة الناس، وكثير من الناس عرفه ذوقا بما أصيب به منهم»[2].

وقد شاهد الناس في كلِّ عصر ومصر السحرة يطيرون في الهواء ويمشون على الماء.

يقول ابن قدامه: «وللسحر حقيقة فمنه ما يقتل، ومنه ما يمرض، ومنه ما يأخذ الرجل عن زوجته، وما يبغض أحدهما إلى الآخر، أو يحبب بين اثنين، وهذا قول الشافعي»[3]؟.

ويقول أيضاً: «اشتهر بين الناس وجود عقد الرجل عن امرأته حين يتزوجها، فلا يقدر على إتيانها، وحلّ عقده فيقدر عليها بعد عجزه عنها، حتى صار متواتراً لا يمكن جحده، وروى من أخبار السحرة ما لا يكاد يمكن التواطىء على الكذب فيه»[4].

وجاء في كتاب (السحر) لمحمد محمد جعفر أنَّ السحر حقيقة كائنة موجودة لا مراء فيها، فقد ذكرته جميع الكتب السماوية، وخلفه البابليون والمصريون

---

(١) التفسير القيم: ٥٧١.
(٢) التفسير القيم: ص٥٧١.
(٣) المغني: ١٥٠/٨.
(٤) المغني: ١٥١/٨.

والهنود والصينيون وغيرهم في كتاباتهم ونقوشهم وتماثيلهم وآثارهم وحوته سجلات وملفات المحاكم في (انجلترا وفرنسا وإيطاليا وبولنده وروسيا والبرتغال) وغيرها، وورد في اعترافات السحرة والساحرات عند محاكمتهم وما خلفوه وراءهم من معدات ومواد وعقود ومواثيق مع الشيطان ومازالت محفوظة بالمكاتب العامة أو المتاحف»[1].

وقال القرطبي: «ولقد شاع السحر وذاع في سابق الزمان وتكلم الناس فيه، ولم يبد من الصحابة والتابعين إنكار لأصله»[2].

ويقول ابن خلدون: واعلم أنَّ وجود السحر لا مرية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذي ذكرناه»[3].

وقد ذكر لنا ابن خلدون شيئاً من السحر الذي شاهده وعاينه يقول في هذا: «ورأينا بالعيان من يصوِّر صورة الشخص المسحور بخواص أشياء مقابلة لما نواه وحاوله موجودة في المسحور، وأمثال ذلك المعاني من أسماء وصفات في التأليف والتفريق، ثمَّ يتكلم على تلك الصورة التي أقامها مقام الشخص المسحور عيناً أو معنى، ثم ينفث من ريقه بعد اجتماعه في فيه بتكرير مخارج تلك الحروف من الكلام السوء، ويعقد على ذلك المعنى في سبب أعدَّه لذلك تفاؤلاً بالعقد واللزام، وأخذ العهد على من أشرك به من الجن في نفثه في فعله ذلك، استشعاراً للعزيمة بالعزم، ولتلك البنية والأسماء السيئة روح خبيثة، تخرج منه مع النفخ، متعلقة بريقة الخارج من فيه بالنفث، فتنزل عنها أرواح خبيثة، ويقع عن ذلك المسحور ما يحاوله الساحر»[4].

---

(١) السحر: ص ١١.
(٢) تفسير القرطبي: ٢/٤٦.
(٣) مقدمة ابن خلدون: ٩٢٧.
(٤) مقدمة ابن خلدون: ٩٢٨.

ويذكر ابن خلدون أيضا أنه شاهد «من المنتحلين للسحر وعمله من يشير إلى كساء أو جلد، ويتكلم عليه في سرّه، فإذا هو مقطوع متخرق، ويشير إلى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالبعج، فإذا أمعاؤها ساقطة من بطونها إلى الأرض»[1]

ويذكر ابن خلدون أنَّ هذا الصنف يسمى بالبعَّاجين، لأنَّ أكثر ما ينتحلون من السحر بعج الأنعام، وقصدهم بذلك إرهاب أهلها ليعطوه من فضلها، ويذكر أنَّه لقي جماعة منهم، وشاهد من أفعالهم هذه بذلك، وأخبروه أنَّ لهم وجهة ورياضة خاصة بدعوات كفريّة وإشراك لروحانية الجن والكواكب، سطرت فيها صحيفة عندهم تسمى الخزيزيّة يتدارسونها، وهم يصلون بهذه الرياضة والوُجهة إلى حصول هذه الأفعال لهم، وأنَّ التأثير الذي لهم إنما هو فيما سوى الإنسان الحرّ من المتاع والحيوان والرقيق، ويعبرون عن ذلك بقولهم إنما نفعل فيما يمشي فيه الدرهم، أي ما يملك ويباع ويشترى من سائر الممتلكات، هذه ما زعموه، وسألت بعضهم فأخبرني به، وأما أفعالهم فظاهرة موجودة، وقفنا على الكثير منها، وعاينتها من غير ريبة في ذلك»[2].

ويذكر أنه «سمع أنَّ بأرض الهند في عهده من يشير إلى إنسان فيتحتت قلبه ويقع ميتاً، وينقب عن قلبه، فلا يوجد في حشاه، ويشير إلى الرمانة، وتفتح فلا يوجد من حبوبها شيء»[3].

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ٩٢٨.
(٢) مقدمة ابن خلدون: ٩٣٠.
(٣) مقدمة ابن خلدون: ٩٢٨.

أدلة القائلين بأن السحر تخييل لا حقيقة له

استدل هذا الفريق على مذهبه بأدلة منها:

١ ــ النصوص القرآنية المصرحة بأنَّ السحر تخييل وأخذ بالعيون كقوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[١]. وقوله: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾[٢].

٢ ــ قال أبو بكر الرازي: «لو قَدِرَ الساحر والمعزِّم على ما يدعيانه من النفع والضرر من الوجوه التي يدعون، وأمكنهما الطيران والعلم بالغيوب وأخبار البلدان النائية والسرق والإضرار بالناس من غير الوجوه التي ذكرنا ـ لقدروا على إزالة الممالك واستخراج الكنوز والغلبة على البلدان بقتل الملوك، بحيث لا يبدؤهم مكروه، ولما مسَّهم السوء، ولامتنعوا عمن قصدهم بمكروه، ولاستغنوا عن الطلب لما في أيدي الناس، فإذا لم يكن كذلك، وكان المدعون لذلك أسوأ الناس حالاً، وأكثرهم طمعاً واحتيالاً وتوصلا لأخذ دراهم الناس وأظهرهم فقرا وإملاقا ـ علمت أنهم لا يقدرون على شيء من ذلك»[٣].

وقال الطبري محتجاً لمن ذهب هذا المذهب: «لو كان في وسع السحرة إنشاء الأجسام وقلب لحقائق الأعيان عما هي به من الهيئات، لم يكن بين الحق والباطل فصل، ولجاز أن تكون جميع المحسوسات مما سحرته السحرة، فقلبت أعيانها؟»[٤].

---

(١) سورة طه: ٦٦.
(٢) سورة الأعراف: ١١٦.
(٣) أحكام القرآن: ١/٤٨.
(٤) تفسير الطبري: ١/٤٦٠.

٣ ــ وقالوا لو بلغ الساحر بأن يفعل بسحره ما قيل، لاختلط السحر بالمعجزة[١].

٤ ــ وقال علماء الغرب: إننا لو أردنا أن نختبر صدق مزاعم السحرة بالتجربة وجدناها وهما في وهم، فقد بقيت في أيدينا عين الرقى والعزائم التي كان يدعي السحرة أنهم يحيون بها الموتى، ولكنها عاجزة عن تحقيق أصغر مزاعمهم[٢].

مناقشة القائلين بأنَّ السحر كلَّه تخييل

١ ــ نحن نوافق هؤلاء على أنَّ بعض السحر لا حقيقة له، يقول الراغب: «والسحر يطلق على معان: الأول: الخداع وتخييلات لا حقيقة لها، نحو ما يفعله المشعبذ بصرف الأبصار عما يفعله لخفة يد، وما يفعله النمام بقول مزخرف عائق للأسماع»[٣].

ويقول القرطبي فيما يحكيه عنه ابن حجر العسقلاني: «السحر حيل صناعية يتوصل إليها بالاكتساب، غير أنها لدقتها لا يتوصل إليها إلا آحاد الناس، ومادته الوقوف على خواص الأشياء، والعلم بوجوه تركيبها وأوقاته، وأكثرها تخييلات بغير حقيقة، وإيهامات بغير ثبوت، فبعظم عند من لا يعرف ذلك، كما قال تعالى عن سحرة فرعون: ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[٤] مع أنَّ حبالهم وعصيهم لم تخرج عن كونها حبالاً وعصيا، ثم قال: «والحق أنَّ لبعض أصناف السحر تأثيراً

---

(١) روح المعاني: ١/٣٣٩.
(٢) دائرة معارف القرن العشرين: ٥/٦٣.
(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ص٢٢٦.
(٤) سورة الأعراف: ١١٦.

في القلوب، كالحبِّ والبغض، وإلقاء الخير والشرّ، وفي الأبدان بالألم والسقم»[1].

وقد يكون السحر الذي يقول علماؤنا: إن له حقيقة تخييلاً باعتبار معين، فإنَّ الساحر الذي يطير في الهواء، ويمشي على الماء، ويضير الآخرين، إذا نظرنا إلى أنَّه يطير ويمشي ويضير- فإنَّ ذلك حقيقة، لا شك في ذلك، وإن نظرنا إلى أنَّ هذه الأمور ليست بفعله، وإنما فعلها به غيره، ذلك أنَّ الشياطين هي التي تطير به، وتمشي به، وتضرُّ الآخرين كان فعل الساحر تخييلا باعتبار أننا نظنُّ أنه هو الذي يفعل ذلك، وليس الأمر كذلك.

٢ ــ وأما الرد على الشبهة الثانية فإنَّ قدرتهما على الإيذاء محدودة، فليس معنى قدرتهما على الإصابة بالضرر أنهما يقدران على تحقيق كلّ شيء، فهذا الإنسان المجرم يستطيع إضرار الآخرين، لكنه لا يقدر على كل شيء.

وسيأتي بيان القدر الذي يقدر عليه الساحر.

٣ ــ أما دعوى اختلاط السحر بالمعجزة، فقد بينا فيما مضى الفرق بينهما، فالسحر لا يتأتى إلا من أولياء الشيطان والمعجزة لا تتأتى إلا من أنبياء الله ورسله، والكرامة لا تجري إلا على يد أولياء الرحمن.

والمعجزة والكرامة هبة إلهية لا حيلة لمن جرت على أيديهم في تحصيلها بينما السحر علوم مكتسبة يستطيع تحصيلها كلُّ من تعلمها.

والمعجزة والكرامة خرق لناموس الكون، أما السحر فمن جنس ما يقدر عليه الإنس والجن، المعجزة والكرامة فعل الله، والسحر فعل الإنسان والشيطان.

---

(١) فتح الباري: ٢٢٣/١٠.

٤ ــ أما أنَّ بعض الناس استعمل تعاويذ السحرة ورقاهم فلم تغن شيئاً، ولم تحقق ما كان السحرة يحققونه. فالجواب عن هذا أنَّ السحرة كانوا قبل رقاهم ومعها يرضون الشيطان، وكانت نفوسهم تتكيف بالخبث والشر، وعند ذلك يقع السحر، أما الذين يرددون هذه الكلمات من غير أن يقيموا قبل ذلك علاقة مع الشيطان، ومن غير أن تتكيف نفوسهم بالشر، فإنهم لم يستكملوا الحالة التي يقع السحر عندها.

وفي ختام هذا المبحث نرى أنَّ الذين قالوا بأنَّ السحر كلَّه حقيقة جانبوا الصواب فيما ذهبوا إليه، والذين زعموا أنَّ السحر كلَّه تخييل لا حقيقة له في الخارج جانبوا الصواب أيضا، والذين أصابوا كبد الحقيقة هم أولئك الذين قسموا السحر إلى قسمين، قسم له حقيقة، وقسم لا حقيقة له وإنما هو تخييل.

وقد قسَّم ابن خلدون السحر في (مقدمته) إلى ثلاثة أقسام: سحر يؤثر من غير مُعين. وسحر يؤثر بمعين. والثالث سحر تخييل لا حقيقة له، ثم قال:

«لما كانت المرتبتان الأوليان من السحر لهما حقيقة في الخارج، والمرتبة الأخيرة والثالثة لا حقيقة لها اختلف العلماء في السحر: هل هو حقيقة أو إنما هو تخييل؟.

فالقائلون بأنَّ له حقيقة نظروا إلى المرتبتين الأوليين؛ والقائلون بأنه لا حقيقة له نظروا إلى المرتبة الثالثة والأخيرة، فليس بينهم خلاف في نفس الأمر، بل إنما جاء من قبل اشتباه هذه المراتب[1].

---

(١) المقدمة: ص ٩٢٦.